

الأسرارُ الأبديةُ للثقافة

لكل ثقافة أصيلة أسرارها.

لذلك، قبل أن نتحدث عن الأسس الكونية للثقافة، يجب أن نتحدث عن الأسرار الأبدية للثقافة، أي الأسرار التي لم يكتشفها الإنسان أبداً.

الثقافة هي الدفق الرقيق للحياة في الجسم المتكفي للإنسان. ولكن، لا أحد استطاع أن يقول ما هي الحياة. فالقول بأزهار الروح الأبدية للثقافة داخل الإنسان هو القول بجهل الإنسان أمام يتابع حياته الحقيقية.

هذا التواضع هو بالذات أساس العلم. لأن الجهل أكثر إثارة من العلم، لأنه يبحث فوق كل شيء على اجتناب الخطأ.

إن الجهل، عندما يكون مستتيراً وواعياً، يصبح إسمنت الحقيقة.

والإنسان الذي يرغب في أن يبني على أرض صلبة يعرف إتنوه أين يجب عليه ألا يضع قدميه، ما دام الوعي مانعاً.

لاشك أن مصدر الموجودات غامض، لكن الإنسان المذرك — في بدايات معرفته — يهيء طريقاً، أو حاشية، أو موضعاً يمكن أن يتجلى الغموض الكوني داخلها.

الغريب في الإنسان أنه لا يعرف من أين أتى، لكنه يستعين بجهله — ذلك المتأصل فيه — ليعرف بدقة أين عليه أن يمضي.

والإنسان هنا يستفيد من الموقف التجريبي، أي من روج الافتراضي المنطقي والاستخدام التاجع والمُشير لخياله الذي لا يتعب.

وهو، عندما يحتاج إلى مساعدة، يُحوّل نظراته نحو الماضي ويستخدم ثَمَار تلك المسيرة العريقة والمُتَعَتِّرة لبني الإنسان وقد آتوها إلى تجريد الطبيعة من أسرارها، بخيالهم وافتراضاتهم.

لكنَّ السِّرَّ الحقيقي لن يكشِفُهُ أحدٌ، فهو يفوق كلَّ وصف. وفي عمق كلِّ ثقافة حقيقة تكمن بالضرورة أسراراً تُفوق الوصف، فهي تنبثق من تلك الخاشية التي من فراغ، والتي يضطرُّنا جهلنا الأبدِي إلى حشر أصول الحقيقة داخلها.

لا تُوجد حضارة أو ثقافة أكثر عقلانية من حضارة الصين وثقافتها حيث بلغت السيطرة على الطبيعة نهايتها القصوى، ولكنَّ السيطرة على الطبيعة كانت، فقط، لغاية إطفاء غميتها. لا وجود لآثار الفكر الغيبي، أو حتى للفكر الصوفي في التصورات العقلانية للصين؛ كلُّ شيء في هذه التصورات واقعي، وكلُّ واقع فيها محسوس. لكنَّ «طاوني كنج» للاوثسي يعلن وجود الفراغ في محور الكل، أي في محور الكل الكوني. معنى ذلك أنه يُوجد فراغ لن يملأه العلم أبداً، في حين أن الشعر، إذا اعتبرناه أداة عقلانية ونافعة للحدس، فإنه يستطيع مُساعدتنا في وضع الأسس التي نسمع لنا بالتقدم.

إنَّ المكسيك القديم ساهم ببسط كبير في تأليف الكنز السري الذي تتعدى الانسانية منه منذ الأزل.

فنحن ندين لهُ بكشوفات سيكولوجية من الطراز الأزل، تلك الكشوفات التي كانت القرون الوسطى الأوروبية تُشير إليها بمزمومة العالم الكبير والعالم الصغير، وهي تضع الإنسان، بما هو كونٌ مُصغَّرٌ، في نقطة التقاء كلِّ القوى الكونية.

إذا اغتبر الإنسان، هكذا، كوناً صغيراً، فإنه يكون بعيداً عن اليأس. ومثل هذا اليأس — الذي سُمِّي «داء العصر» والذي ظهر من جديد في فرنسا ولكن في شكل مُفرج تُدلُّ عليه عمليات الانتحار المُتَوَتِّية في عهد السوربالية — هذا اليأس كان إذن يتلاشى تلقائياً فكلُّ قوى الكون كانت تُشارك في امتصاصه.

كان الإنسان يقف في حالة توازن فوق الكون، ويتنفس مع الحياة في الكون، ويمتلك وسائل معروفة لمعالجة الحياة النفسية من خلال الكون.

إن إيقاظ حياة الكون المعتممة والبحث داخلها عن مساعداً، كان وسيلة للصراع ضد بعض الجرائم، أي ضد صنيف معين من الجرائم الغامضة.

لم يكن التعليم مثلما هو عليه اليوم، أي تقنية بسيطة لتقنين الذاكرة، بل كان استحضاراً مادياً للقوى، أو إن التعليم، إن صح التعبير، كان ينفصل جسم الإنسان حتى تبعث القوى داخله.

إن المسرح والحفلات المقدسة الكبرى يومية تداخُل أصواتها، وإعادتها الإيقاعية للصورة التي تفرغ داخل الأوعي الإنسانية، تصلح كلها لذلك.

والطوطمية لم تكن شعوة فظة، أو معتقداً خرافياً يرجع إلى العهود الإنسانية الأولى، بل كانت تطبيقاً عملياً لعلم قائم. إن لم يكن كذلك، فبماذا نحن مكونون؟ هل يعتبر الإنسان نفسه فريداً، دون صلات تربطه بجماعة الأنواع الأخرى — الأزهار، والنباتات، والغلال —، أو تربطه بجماعة مدنية، أو نهر، أو منظر طبيعي، أو غابة؟

إن روح المادة هي نفسها في كل الأشياء. والطقوس الدينية اليوم كانت في الماضي تبدو مجردة من محتواها الخرافي. وذلك بفضل المسرح الذي كان قوة إجتماعية تعمل بوسائل طقوسية وعلمية خارج وعي الشعوب التي حرصتها الأديان على التعصب.

إننا نشترك في كل الأشكال الممكنة للحياة. ولا وعينا الإنساني يُثقله ناسن ألفي. وليس من العقل أن نخذ الحياة. إن شيئاً مما كنا في الماضي وخاصة مما يجب علينا أن نكون اليوم يرقد باصرار في الحجارة، والنباتات، والحيوانات، ومناظر الطبيعة والغابات.

هناك ذرات من إيتنا الماضية أو الآتية تهيم في الطبيعة حيث تعمل قوانين كونية دقيقة على تجميعها. ومن العدل أن نتحدث عن إجابات فعالة، وسريعة، وسهلة أيضاً، في كل العناصر المنحلة.

إن في عملية الوعي بكل ما يوحدنا، مادياً، بالحياة العامة موقفاً علمياً، لا يستطيع العلم اليوم دخضه، ما دامت الكشوفات الفيزيائية الأخيرة تحتزل العالم في شكل طاقة، وما دامت الكشوفات السيكلوجية الأخيرة تثبت أن الإنسان ليس جوهراً ثابتاً، وأنه، بالتواحي الخفية التي في وعيه، ينتمي إلى المستقبل بنفس الدرجة التي ينتمي بها إلى الماضي.

يملك لأوعي كل إنسان، ولكن بدرجة مختلفة من الأهمية وحسب قوة عقيرته الذاتية، كترًا من الصور العريقة التي ألبستها أجيال المكسيك القديم مغطفاً من الترموزات الغامضة.

لذلك، ننتظر، إلى جانب ثورة إجتماعية واقتصادية ضرورية، ثورة أخرى في الوعي
ثمكنا من معالجة الحياة.

وعلى المكسيك الحديث أن يقوم بهذه الثورة.

هذا النص للشاعر السوريالي الفرنسي أنطونان أرتو كُتب عند إقامة الكاتب في المكسيك، قبل عودته
إلى باريس ودخوله مستشفى «روديس» للأمراض النفسية، ونشر بالاسبانية بصحيفة «النائبونال» بتاريخ 1
غشت 1936. النص الأصلي، أي الفرنسي، لهذا المقال مفقود. لذلك أعيد نقل النص إلى الفرنسية بمشاركة
فيليب سوليرز، وهو اختصاصي في دراسة أعمال الكاتب «الملعون»: أنطونان أرتو الذي قاطع بداية من
الثلاثينات مجموعة السوراليين لتوجيهها الماركسي اللوغماني وفر من الغرب — حسب تعبيره — للبحث عن
آفاق حيوية للثقافة خارج الأنماط العلمانية والبورجوازية المتحجرة. وسفره إلى المكسيك يندرج ضمن هذا
التوجه الثوري الجديد.

ترجم هذا النص إلى العربية عن كتاب «رسائل ثورية» الذي صدر في باريس عن دار «جالمار»، سنة
1971. وهو من كتب أرتو العديدة التي نُشرت بعد موته وبعد أن أعلن المثقفون الطلابيون في فرنسا
عن ضرورة إعادة الاعتبار إلى هذا الكاتب الذي عاش حياة كئيبة وسيئة وخلف كتابات مثيرة أزعجت
في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن كثيرا من المثقفين المحافظين أو الماركسيين اللوغمانيين.
(المترجم).

ترجم النص : محمد رضا الكافي.